على هامش النقد

الأدب «المهموس»
والأدب الصادق

للأستاذ سيد قطب

قلت فى كلمتى السابقة عن اللون المفضل من ألوان الأدب الذى يدعو إليه الأستاذ مندور

« من جميع النماذج التى اختارها حتى الآن — والنموذج كما قلت أكثر دلالة من الشرح العام — أستطيع أن أسمى هذا اللون باللون «الحنين» حسب تعبير أولاد البلد من القاهريين! الذى تحس فيه « بالحنية » أو بالهمس والوداعة الأليفة حسب تعبيره هو »

ولست أحب أن أظلم الأستاذ «مندور» ولا أن أشوه صورة اللون الأدبى المفضل لديه. فليس فى الأمر ما يدعو إلى هذا العناء، أو هـذا الالتواء. فأنا أسجل له هنا — فى الرسالة — بعض الشرح لما يريده نقلاً عن « الثقافة » . قال فى أحد الأعداد :

« الهمس فى الشعر ليس معناه الضعف ، فالشاعر القوى هو الذى يهمس ، فتحس صوته خارجاً من أعماق نفسه فى نغمات حارة ؛ ولكنه غير الخطابة التى تغلب على شعرنا فتفسده ، إذ تبعد به عن النفس ، عن الصدق ، عن الدنو من القلوب »

ثم قال فى عدد آخر :

« وبعد ، فهناك شعر صادق جميل ، وهناك نثر صادق جميل ، سميتها مهموسة لأعبر عما يثيره التعبير الفرنسى « à mi-voix » الذى نستطيع ترجمته حرفياً بـ « نصف الملفوظ » والمعنى فى نفسى ليس واضحاً تمام الوضوح ، لأنه فى الحق إحساس أكثر منه معنى ، وإنما أستطيع أن أوحى للقارىء بشىء منه . إن قلت إننى أقصد إلى ذلك الأدب الذى سلم من الروح الخطابية التى غلبت على شعرنا التقليدى منذ المتنبى »

ثم يقول فى نفس المقال :

« لست أدرى أأفصحت أم لا . ولكنى فى الحق أعتمد على نفاذ روح القارىء ، لأنى يائس من أن أحمل إليه ما فى نفسى حملاً تاماً ، ولهذا أتركه له دائماً مشاطرتى التفكير والإحساس .

قَدّم قلبَينا قرباناً للوطن ... ولما مضيت فى إثره أقتل الهون البرابرة الذين قتلوا كنارى ، قبض علىّ سفاحهم فى طريق الحومة ، ولما أقتلْ من كلابهم غير عِلجَين ... فوا أسفاه على أن لم أروّ الأولب بدمائهم جميعاً ... »

* * *

اسمع إلى لحن الإنسانية المجنونة يا وتر !

الإنسانية التى أصابها هذا السُّعار المحزن الذى جرّح القلوب وقرّح العيونَ وبرّح بالقافلة ...

ألا أيها الليل الطويل متى ينبلج الفجر ؟

إلا أيتها العِير الضالة متى تطلع الشمس ؟

ألا أيها الوتر الماجن متى تجد فتسمع دوى هدير الموج الصخاب وهزيم الريح الصّرصر وانفطار قلب الإنسانية الباكية . .

الإنسانية التى تدفن أطفالها تحت الردم ، وتهوى جواريها فى بطن اليم ، وتبث ألغامها فى البحر واليَبَس ...

الإنسانية التى تضحك وتبكى ، وتنوح وتغنى ، وتلبس السواد وتلبس البياض ، وترقص فى العُرس كما ترقص على القبرة ، وتتحمس فى الخندق كما تتيه فى الحانة ...

ما هذا ؟

ما ذا تسمع يا وتر ؟

ما هذا الصوت العذب الجميل الذى يقول :

أيها الخفاق فى مسرى الهواء ؟

ولمن هذا اللحن الخلاب :

يا شباب النيل .!

يا عماد الجيل ؟ !

يا للموسيقا ؟ !

أين هو اللواء الخفاق ؟ وأين هم شباب النيل عماد الجيل ؟

اصدق يا موسيقا ... اصدق ... اصدق. فقد جد الجد ، وآن أن يزهق الباطل !

دريني خشبة

عليه أن يصل ما أقطع ، وأن يفصل ما أجمل ، وأن يضفى على الإشارة كل ما خلفها ...

وقد عنيت أن أسجل هذه الفقرات ، ولعلها أقوى وأوضح ما يصور فكرة الأستاذ مندور — أو إحساسه بتعبير أصح — وهذا اللون الذى يدعو إليه فى الأدب ، لون حبيب ، ما فى ذلك شك ؛ ولكنه ليس اللون الوحيد الذى نعادى كل ما سواه ، لأنه ليس الصورة الوحيدة للحياة .

ولم يكن خطأ الأستاذ مندور فى هذا التضييق وحده — عند رسم آفاق الأدب — ولكنه كان كذلك فى رسم صورة واحدة لهذا اللون الواحد عند اختيار نماذجه — والنموذج الواحد هو الذى يكشف عن الصورة الباطنة فى نفس المتحدث — فإذا جاز لى أن أعد النماذج التى جاء بها صورة للون الذى يدعو إليه، لم أكن حينئذ ظالماً له ، ولا مشوهاً لغرضه حين سميت الأدب المهموس بالأدب « الحنين » !

وأحب أن أطمئن الأستاذ مندور على أننى أحس ما فى نفسه مما لا يستطيع أن يحمله إلى القارئ حملاً تاماً — كما يقول — ولا أرى فى استنجاده بإحساس القارئ لتكملة ما يريد وتفصيله ، عجزاً ولا قصوراً — كما رأى البعض — فالحس الفنى لا تستطيع الألفاظ دائماً أن تحمل معانيه كاملة بوضوح ، وحسبها أن تشير إليه وأن تستثير فى نفوسنا المعانى والأحاسيس والذكريات الخاصة به

وهو فى شرحه للأدب المهموس ، كان أوسع أفقاً وأرحب صدراً ، من الأمثلة التى جاء بها جميعاً من لون واحد ، ولو كانت المسألة مسألة علمية أو فكرية لكان هذا الشرح هو كل شىء . ولكنها مسألة فنية ، فالمثال هو الأصدق والأصح فى تصوير الشرح العام

وإذا قلت : كان أوسع أفقاً وأرحب صدراً ، فإنما أقيسه إلى نفسه فى فهم الأدب . ولا أحتاج أن أقول : إن ذلك الأفق ليس وسيعاً ، وهذا الصدر ليس رحيباً ، بالقياس إلى الفهم العام الذى يجب أن تمثله جميع الألوان الصادقة من الفنون ، لا لون واحد قد يكون أفضل الألوان ، وقد لا يكون !

وقد قلت فى الكلمة السابقة : « إنه كان موفقاً فى اختيار بعض النماذج ، غير موفق فى اختيار بعضها ، فقصيدة « يا أخى » لميخائيل نعيمة ؛ وقصيدة « ترنيمة سرير » لنسيب عريضة يعدان نموذجاً طيباً لهذا اللون بذلك القيد . ولكن ما عداهما من مختاراته كان نماذج رديئة للشعر عامة ، ولهذا اللون من الشعر كذلك ، لا فى الأداء وحده ، ولكن فى حقيقة الشعور »

فأحب أن أفصل هذا القول بعض التفصيل

يقول الشاعر « نسيب عريضة » بعنوان « ترنيمة سرير » :

ظلام الليل قد جنا ... وبوق الهم قد رنّا
فنم يا طفل لا يهنا ... غنى بات شبعانا

قتام اليأس غطّانا ... فنمْ ، لا عين ترعانا
إذا ما صبحنا حانا ... حسبنا الصبح أكفانا

ألا يا همُّ يكفينا ... لقد جفّتْ مآقينا
لو ان الدمع يغذونا ... أكلنا بعض بلوانا

فتنال هذه القطعة إعجاب الأستاذ « مندور » وحبه ، وهى حقيقة أن تنال هذا منه ، ومنا نحن أيضاً — بوصفها لوناً من ألوان الأدب ، لا بوصفها اللون الوحيد الذى يحب —

ولكن الشاعر يقول قطعة أخرى بعنوان « يا نفس » لا تبلغ أن تكون فى هذا المستوى ، ولا أن تكون نموذجاً شعرياً ، فتنال إعجاب الأستاذ مندور كذلك لأسباب سنذكرها بعد . وهذه بعض مقطوعاتها :

يا نفس مالك والأنين ... تتألمين وتُؤلمين
عذبت قلبى بالحنين ... وكتمته ما تقصدين !

قد نام أرباب الغرام ... وتدثروا لحف السلام
وأبيت يا نفس المنام ... أفأنت وحدك تسهرين؟

والليل مر على سواك ... أفا دهاهم ما دهاك
فلم التمرّد والعراك ... ماسور جسمى بالمتين

ولا يعلو مستوى بقية القصيدة عن هذا المستوى ، الذى لا شعر فيه ولا حرارة . وأحسب أن وضع القصيدتين متقابلتين — وهما لشاعر واحد — يكفى للاحساس القوى الواضح بما بين مستواهما من فروق . ولكن الأستاذ مندور يصب إعجابه عليهما جميعاً ، ووراءه فى ذلك أعوان ؛

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الأول : أن القصيدتين لشاعر من شعراء المهجر . وهو يحب شعراء المهجر ، لأنه حين ذهب إلى أوربا كان يحمل بعض أدبهم ، وبعد أن عاد إلى مصر لم ينفسح له الوقت ليقرأ الشعراء المصريين المحدثين !

والثانى : أن فى كلتا القصيدتين نغمة أسى دفين متهالك . وهو لايحوجنا فى هذا إلى التخمين إذ يقول عن القصيدة الأولى : « أعود أنصت إليه — أى إلى نسيب عريضة — يهدهد طفله فى « ترنيمة سرير » حزينة بموسيقاها المطردة ! » وكان قد قال عن المقطوعة الثانية : « وها نحن منذ المقطوعة الأولى فى جو الشعر فالنفس تئن »

يكفى إذن عند الأستاذ « مندور » أن تكون القصيدة لأحد شعراء المهجر ، وأن يكون فيها حزن وأنين ، لتنال منه الحب والاستحسان ! ومرد هذا كما قلت إلى « مزاج خاص » هو إلى الحالات المرضية أقرب فيما أعتقد

هناك عقدتان نفسيتان لعلهما تلتقيان عند عقدة واحدة . فالأستاذ — كما لمحت فى أحاديثى القصيرة معه — حاد المزاج ، سريع التأثر ، شديد الحنين والألفة ، وهى صفات إنسانية تحب ، ولكنها لا تصلح للناقد ولا يستقيم معها النقد . وهو يقول فى إحدى مقالاته :

بلغنى أن « أمين مشرق » قد قتلته سيارة بأمريكا ، فحزنت وراجعت نفسى فى سر ذلك الحزن ، وهذا رجل ما رأيته قط ، ولا حدثنى عنه أحد ، وإنما هى مصادفات الحياة ساقتنى وأنا طالب ، إلى كتاب به مختارات لشعراء المهجر ، فتفتحت لنغماتهم نفسى ، واصطحبت الكتاب إلى أوربا سنوات ، وعدت « بكتابى » القديم كما ذهبت به ، وإن تكن جلدته قد ضاعت ، وأوراقه الأولى قد تآكلت ، وأصبحت لا أعرف له عنواناً . ولكننى أفزع إليه كلما ضاق الصدر أو عض الألم ، فأجد بين صفحاته من عبير الروح ما يحيى الإيمان

« أمين مشرق » بين من يضمهم « كتابى » . له فيه صفحات من الشعر والنثر . كم آنست من وحشتى ورفعت من قلبى . إنه صديق قديم »

هكذا كتب الأستاذ « مندور » وأنا « أحب » هذه النغمة منه . ولكنى من أجلها لا أثق بأحكامه الأدبية — وبخاصة فى الشعر — ومن أجلها كذلك أحذر القراء من الاطمئنان إلى هذه الأحكام !

فى « مندور » حنان وألفة ، وهو قد « هاجر » إلى أوربا وحمل معه إلى المهجر كتاباً يضم مختارات لشعراء « المهجر » وكان هذا وحده يكفى لأن يحب هذا الكتاب وشعراء هذا الكتاب . ولكنه كان كذلك كتاب الصبا الذى رافقه وهو « طالب » ، وجلدته قد ضاعت ، وأوراقه قد تآكلت . ولكنه عاد « بكتابه » القديم كما ذهب به ، فزاده ذلك إعزازاً لديه وأثارة عنده . وصار يفزع إليه كلما ضاق الصدر أو عض الألم . وكان « أمين مشرق » بين من يضمهم كتابه فاستحق لقب « الصديق القديم » وكان سواه من شعراء المهجر كذلك . فكل منهم إذن هو « صديق قديم » !

ولقد قلت إننى « أخشى أن تكون حادثة ما أو عدة حوادث كامنة فى ماضى الأستاذ مندور ، تتحكم فى نفسه دون شعور » فهذه حادثة من تلك الحوادث التى افترضتها ومن يدرى فلعل وراءها من نوعها الكثير !

على أن هناك عاملاً آخر تتأثر به أحكام صاحب « الميزان الجديد » ؛ فقد عاد إلى مصر قريباً ، ولم يتسع له الوقت بعد ليقرأ الشعراء والأدباء المصريين ؛ إذ كان مشغولاً فى الوقت القصير الذى تلا عودته بكتابة رسالة يتقدم بها إلى الجامعة . فهو — كما فهمت من حديث سريع معي — كان يحسب الشعر المصرى هو ذلك الذى تنشره الأهرام فى بعض « المناسبات » ، فأصدر عليه حكماً جازماً سريعاً . كما أنه عند ما تحدث عن « بيجماليون » لتوفيق الحكيم ، لم يكن قرأ كل مؤلفاته فأصدر عليه حكماً جازماً سريعاً . وهكذا كان أمره — فيما أحسب — مع شعر العقاد وشعر سواه : نظرة خاطفة سريعة ، وحكم جازم سريع ! وليس هكذا يصنع « أصحاب الموازين » !

* * *

وبعد فلقد كان اليوم موعدى مع القراء لعرض نماذج من الشعر الهامس الصحيح ؛ فعذرتى إليهم أن الفرغ المتاح قد استغرق كله . وإلى اللقاء القريب .

(حلوان) سيد قطب